

«لويبق إلا الاعتراف»



احمد عبد المعطي حجازي

شاعر ومسؤولية النضال

بقلم عبد الرحمن غنيم

حيث تسرون هناك الآن ، في الليل البعيد
ينقذني نشيدكم من الضياع ..

ولكن ، هل انتقد الشاعر من الضياع ! وهل يكون هذا ممكنا بالنسبة
لشاعر كاحمد عبد المعطي حجازي لا يقتنع من النضال بالفناء ؟ ان المقاطع
التالية من القصيدة لتؤكد انه اراد بهذا الاستهلال ان يحيي الذين
يصنعون الفجر في اليمن ويحيون لديه الامل .. فبعد ان ينقل نشيد
الجنود المحاربين في الجبال هناك يردد .

ونحن موتى لم نزل

نمضي لمجلس العزاء ..

وبعد ان يردد نشيد الطيار الذي لا يلبث ان يسقط شهيدا وقد
احتترقت به الطائرة ، يردد في لوعة :

يا ليتني يا ايها الطائر ريشي في جناحك الكسير !

يا ليتني بعض الرماد من حريقك المثير !

وحين يردد الجنود نشيدهم :

فان حيننا توج النصر العظيم عمرنا

وان فئينا .. فاذكرونا ، انا اقلى ثمن .

يردد الشاعر في اسي:

لو انها الذكري ، لخف الوزر ، وارتاح الضمير

لكنتي لا استطيع ان اظل شاهدا على القور !

عن طريق هذه المقابلة الرائعة بين موقفين : موقف البطولة في قلب
المركة ، وموقف الذي يعيش على هامش الاحداث يبرز احمد عبد المعطي
حجازي في درامية رائعة الاحساس بالمسؤولية . وبنفس هذا الاحساس
العميق بالمسؤولية النضالية يعالج الشاعر كافة القضايا المتعلقة بالعالم
العام . وهو لا ينسى حين يتفنى بثورة تهب في مصر العربية ان مصر
كانت تشكل مع سوريا جمهورية عربية متحدة :

هذا حصاني .. ولا اخليه

حتى يلوح الشمال عاليه

وحين نمر ذكرى الوحدة بعد وقوع انفصال ايلول الرجعي القدر ،
يكتب الشاعر قصيدته الرائعة « فبراير الحزين » بروح لم تتوافر لدى
اي شاعر عربي اخر ، اذا استندنا الى تجسدها في تجربة فنية عميقة ،
وباحاساس بالمسؤولية عميق :

قلنا انتهى .. فلن يعود

اغتاله سبتمبر الماضي على ابوابنا

فما خرجنا نمنع المسكين من ايدي الجنود

لكنه عاد الينا .. فالزمان

ليس اذن مثلي جبانا ،

ايها الاخ الجبان !

فان الذي صنع الانفصال ليس وحده الجبان ، وانما يشاركه
الشاعر الجبان لانه لم يدافع عن الوحدة ، لم يخرج يوم اغتيل فبراير
لنقاذه . ولقد كان يوم الوحدة في فبراير اروع يوم في حياته .. فعن

في انطلاق شعرنا العربي الى ابداع اشكال جديدة في التعبير ،
تثور مسألة ذات خطورة ، وهي ان من المفروض في هذه الاشكال الجديدة
ان تكون الغاية منها ربط الشعر بالجماهير ربطا يعيده الى مجده الاول
ومكانته في تاريخنا العربي القديم ، لا باعتبار هذا الهدف بالنسبة
لشعراء محققا لغورهم او بمعنى ادق رغبتهم في ان يكون لكلتهمهم
وقعها ، ولكن باعتبار ان عودة الشعر الى مكانته هذه انما هو دليل صحة
بالنسبة للشعر كفن صادق ، لكل كلمة فيه وقعها ، وحين نقول «وقعها»
فانما نقول ضمنا « قيمتها ووزنها » . وان يتم هذا الا اذا عبر الشعر
عن متطلبات الحياة ، اي اصبح واقعا ملازما لتطلعات الجماهير العربية
نحو الفد الافضل في هذه الفترة التي ينطلق فيها المد الثوري الاشتراكي
العربي محققا اهدافه القومية .

وليس بمستغرب في مثل هذه الحالة ان تبرز من خلال المحاولات
الجديدة المخلصة اشكال ذات غرابة ، بحيث لا تستطيع الانسجام مع
النوع الموروث ، وبكلمة مختصرة ، بحيث تعجز هذه المحاولات الجديدة
عن تحقيق جماهيريتها الواسعة . ومن ثم ان تصطدم هذه المحاولات
بالدافع الاساسي للتجديد .

ثارت لدي هذه الخواطر وانا اقرأ في متعة باللغة قصائد الديوان
الجديد للشاعر المدع احمد عبد المعطي حجازي «لم يبق الا الاعتراف» .
ذلك ان احمد عبد المعطي حجازي على خلاف معظم شعرائنا المحدثين
استطاع ان يوفق بين الشكل الجديد وبين متطلبات المرحلة الثورية
والاصالة العربية ، فقدم لنا في ديوانه الجديد قصائد تثير الوجدان
العربي ، بل وتطرح طريقة جديدة في الاحساس بالمشاكل الاجتماعية
والانسانية .

فيينا نجد من الشعراء المحدثين من هجروا النسق التقليدي
الموروث الى تناول تجاربهم الشعرية بلغة الاحاجي والمعميات ، نجد
حجازي يتعمد بنا عن كل غموض ، وحين يهجر الشكل التقليدي فانما
يهجره توخيا للسطوة والصرامة التي لا تفوقها صراحة ، وكذلك لا
يتمتع عن تناول تجاربه في بعض الاحيان بالنسق التقليدي ، وهو لا
يفقد صراحته في كل الظروف ، فشعره همس خافت ينفثنا الاحساس
لا بالحزن ولا بالفرح رغم وجود الحزن العميق والفرح الغامر في شعره ،
وانما احساسا بالمسؤولية . وهو بهذا يتجاوز الاحساس المباشر ليجسده
في احساس ايجابي اصيل - وبلغته - الى اعتراف . وهذا هو سر
تفرده بين شعراء جيله حتى لتشعر به رائد مدرسة في الشعر العربي
الحديث ، بل هو كذلك .

يقول في قصيدة « الدم والصمت » وهي اول ما يطالعنا من قصائد
الديوان ، وفيها يعبر عن احساسه تجاه جنودنا العرب المحاربين على
ارض اليمن من اجل استمرار شروق شمس الحرية على ارضها :

ما زال في من بريق الدم لون ، وشعاع

فلتنفخوا ابواقكم في الشمس ايها الجنود

لتنفخوا ابواقكم ...

ذلك اليوم يقول :

هل تذكرون يومها ماذا فعلت ؟

لقد رقصت

في شارع لا رقص فيه

الا لسكير تيمس او مهرج صفيق

لقد تحديت قوانين المرور

وكيف يا علامة حمراء في وجه الطريق

ان توقفي بحر السرور ؟

هكذا يواجه الشاعر الوقائع في صدق بعيدا عن كل تهريج، فيعيد

لللمعة صفاءها ونقاها .. انه مسئول عن الانفصال وكذلك الآخرون ،

لانه لم يمتلك امام الجريمة سوى البكاء :

هل تذكرين يا دمشق ما فعلت ؟

لقد بكيت

واغتاله سبتمبر الماضي امام منزلي

انا الجبان !

وهو يؤكد بعد ذلك مسؤليته ومسئولية دمشق في تحطيم الانفصال

الرجعي .

وعندما يعني الشاعر للاتحاد الاشتراكي العربي ، فانه لا يعني له

بطريقة خطابية وانما يعني له كما يريدمنه ان يكون : حصنا للفلاحين

الفقراء وللعمال . او يريد ان يكون :

.. ملحة ،

ارويها للبسطاء

نركب فيها الخيل ، ونفتح مدن الحب ،

ونحرق فيها السجناء .

✱

كن لي سيفاً ، وحصاناً ، ونشيداً

لو ظهروا في الليل ينادون الاسماء

ويسوقون الى الموت الشعراء !

الا ان قمة القصائد التي تتناول العالم العام في الديوان، وتؤكد

المسئولية ، انما هي قصيدته « دماء لومومبا » . وفيها يبدو احمد عبد

المطي حجازي شاعرا انسانيا كما هي حقيقته كشاعر يؤمن بعرويته ،

وبدورها الانساني الاصيل في خدمة قضايا التحرر والاشتراكية في

الوطن العربي وفي العالم . يقول الشاعر :

لا تسألوا : من قاتل المسيح ؟ اني اعترف

انا الذي قتلته هذا الصباح !

ولا بد ان القارئ سيقف مبهورا امام هذه الحدة ، وامام هذا

الاعتراف ، وقد يتصور ان الشاعر يلقيه على لسان تشومبي او الاستعمار،

وقد يبدو حجازي امام البعض مبالغا في هذا الاعتراف ؛ لكنه سرعان

ما سيدرك سر هذا الاحساس العنيف اذا عرف كيف واجه الشعراء

جريمة بشعة هي جريمة اغتيال لومومبا :

حين اتاني في الصباح طائرا بلا جناح

مقلل اليدين في صدر الصحف

قتلته ، طويت وجهه ، وسرت ارتجف !

اليس هذا الموقف جريمة ؟ على الأقل في نظر شاعر انساني كشاعرنا

يقول عن نفسه :

ماذا تبقى بعد لومومبا لشاعر ضريح

يجول في الارض الفضاء

بالامس ضاع منه مفتاح السماء

وفر منه الحب ، فر الاصدقاء

وكان لومومبا صديقه الاخير

يدعو له بالكبرياء .

هذا الاحساس الاخير قد يكون متكلفا ، وان يكن يدل على تمزق

الشاعر وضياعه ، اذ يصف نفسه (بالشاعر الضريح) بينما هو اكثر ما

يكون صحوا ما دام يدرك هذا البعد الانساني لقضيته ، ويقرر انسه

وحيد فقد الطريق الى السماء ، ولم يبق له سوى لومومبا . كرمز

لنضال الانسان من اجل الحرية .

ويعود الشاعر الى تعميق تجربته . فيوضح لنا قضية القتل الغريبة:

وحن جاء في الصباح

اطمعتي فؤاده العاري ، واسقاني دمه

ناشدني بالله الا اسلمه

لكنني تركته ، ورحت ارقب الريح

وهي تنوشه ، وتطوي علمه !

لكن ، هل يقتصر الشاعر على الاعتراف بذنبيه ؟ كلا ، فانه يصرخ

في وجوه كل البشر متهما اياهم بمشاركته الجريمة ، لانهم تركوا لومومبا

يموت :

قولوا لماذا لم تروا دماءه على يدي

تسري كما يسري الحريق ؟

قولوا لماذا لم يصح بي صائح على الطريق

يا قاتل المسيح قف !

قولوا لماذا لم يكحل عينه يوم الردى مرأى صديق

يا من جدلتم فوق رأسه السعف

يا من بكيتم تحت صوته العميق

تأملوا اكفكم ...

اني ارى دماءه في كل كف !

بهذا الاحساس العميق بالتقصير امام الاحداث في الوطن العربي

وفي العالم يقف احمد عبد المطي حجازي ليثبت في كل حرف من حروفه

الاحساس بالمسئولية . وهكذا يصبح شعره عاملا ايجابيا في نهضة الامة

العربية وتفتحها ..

ومن هذا الاحساس يمكن لنا ادراك سبب تسميته لديوانه باسم

« لم يبق الا الاعتراف » . فهو اذ يدرك مسؤليته يعترف بتقصيره .

ومن هذا المنطلق ينطلق الشعراء المحدثون اذ يضعون انفسهم في صميم

مشاكل عصرهم مشاركين الجماهير احساسيا ، ومحاولين الوصول الى

الفكر النير ، والكلمة الوضاعة المشرقة ، حيث ان الناس قد ملت وقوف

الشاعر الممتلىء الجيوب بالحكم والامثال يمنحها لهم من فوق منابر

الوعظ والارشاد . وتبقى الكلمة الشعرية عند الشاعر المحدث مقصورة

ان لم تقترب بالعمل ، بالفكر . ولهذا فليس من المستغرب ان يقول حجازي

في ختام قصيدته عن لومومبا :

احس اني عاجز عن الرثاء

فاللفظ ، نفس اللفظ ، قلناه رياء في رياء

والبيع ابلاه ، وابلاه الشراء

والصمت اجدى حينما نهتز من اعماقنا

وزوح لومومبا على المرأة خيط من دماء !

ولهذا ، فان قصيدة حجازي عن لومومبا الشهيد لم تكن قصيدة

رثاء . رغم انه بدأها بقوله « جلست للرثاء » ، لانه كشاعر صادق لم

يستطع ان يذم احساسه هو بالذنب ، والحاح هذا الاحساس عليه

بالاعتراف ، وقد كان هذا الاحساس اقوى من اي احساس اخر ، وكان

اجدى من اي رثاء يقال . وكما خلد التاريخ لومومبا لا بد له من ان

يخلد قصيدة صادقة عنه ، كقصيدة « دماء لومومبا » .

هذا هو اول خيوط الديوان ، وان تكن قد بقيت في هذا الخيط

اكثر من قصيدة رائعة تحمل من التفاؤل ما جعلنا نضعها في نهاية الخيط،

لتؤكد ان الشاعر بقدر ادراكه للتقصير وابعاده يتفنى بالانتصارات

ايضا اروع اغانيه . فتقرأ له « اغنية على الطريق » وهي عن السد العالي،

و « اغنية اكتوبر » عن المقاومة الباسلة للعدوان الثلاثي الفاشم ، ثم

قصيدته الرائعة « البطل » وهي عن الرئيس جمال عبد الناصر ..

ويبدأها بابرار اول عنصر من عناصر نظريته للبطل وهو انه لو كان فارسه

مجرد فارس يفعل المفجرات ، ومتفرد ، لا صلة له بالناس وحياتهم

وامالهم لا تفنى به ثم يحدد نظريته تحديدا كاملا بقوله :

لو كان قديسا حصانه القمر

اغنية للفداء والكوبتر

عيناك موسيقى .. تصوغها الانامل الرقيقة
 عيناك وردتان في حديقة أيقه
 عيناك عنقودان من حنان
 يقطران في دمي الامان
 عصفورتان .. تحرسان قلب خوخة وحيدة
 نبعان في الجبال يجريان في خطى رشيدته
 ويرسمان اخر المطاف .. هذه البحيرة الفريدة ،
 .. عيناك اصحاحان ، بحفظان نادر الهوى ،
 وصادق الامثال
 ويدفعان عنهما الظلام .. من شجاعة الابطل
 فمد تلاقت العيون ... بالعيون
 ولحن المساء .. تمتجات وعذك الامين
 - وكان ذلك اللقاء .. من سنين -
 احسست يومها ، برغم بسمة الرضا ، بحزني الدفين
 رأيت يا كبيرة الفؤاد .. انني بحاجة اليك
 وان ما اريده .. لديك
 اختأ تقول لي .. حكاية طويلة ، عميقة .. وممتعه
 وان يكون لي .. من الجدران .. اربعة
 بيت على رأس الطريق ، خالياً من الجهات الاربعه

يكون ناعم الهواء في الربيع ، بارداً في الصيف ،
 دافئاً مع الشتاء

تضيئه الاسره
 يحط فيه طائر المسره

●
 وكان ان وجدت فيك .. ما رجوت ان يكون لي
 الدفء ، والمأوى ، وراحة الظهره
 وقبلتين في الصباح ، والمساء
 وضحكة قريبه
 وبلبل ملائكي الوجه ، طفلي الغناء ،
 .. فمنذ ان اسرى بي الحنان ، ليلة الهوى ، الى علاه
 ومنذ ان نفخت في .. جذوة الحياه
 هدمت حائط الامس ، نفضت وحشتي ، وقسوة
 الدروب

محوت وشم غربتي الكئيب
 شفيت من تسكعي الضرير ، من جراحي المريه
 برئت من هزائمي ، وكل ما يحطم الرجال ..
 في المؤخره
 وسرت مزهوا ، بعالمي الجديد .. مثل قائد تظله
 البيارق المظفره

●
 عيناك يا عمري .. محارتان للألىء الثمينه .. المنوره
 ابصرت اول الطريق من خلالها .. ضمنت آخره .
 محمد مهزان السيد
 القاهره

انا بكل رياح الارض اغنيه
 رفاة ابدأ في الافق مرويه
 يا من سترئينا
 لا تبكنا .. ان يوم النصر يحيينا
 يوما تعود به الاشلاء للجسد
 يوما تعود به البلدان للبلد
 الوحدة .. الوحدة الكبرى ، وحلم غد
 عدل وحرية
 والريح في الليل احزان نهاريه
 تمشي باعماقتنا هونا ، ولس يد
 تشير احزاننا .. عدنان اواه !
 عدنان ! حلم الغد الرفاف ارداه
 ارداه ، احياه
 احياه للابد .

فاذا كان عدنان قد قضى فداء لمبادئه ، فقد حمل الشباب العربي
 الرسالة ، وترنم بها الشعراء العرب ، ومنهم احمد عبد المعطي حجازي
 وهو الشاعر الذي يؤكد باستمرار مسؤوليته النضالية ، الشاعر الذي
 تفنى بعبد الناصر وعدنان المالكي والاتحاد الاشتراكي العربي والسسد
 العالي ولوموميا وردد باستمرار معهم ومع الامه العربية :
 الوحدة .. الوحدة الكبرى ، وحلم غد
 عدل وحرية .

وهذا الجانب الذي تعرضنا له في مقالنا ليس كل ما في ديوان
 الشاعر الكبير . وأمل ان نلتقي معه مرة أخرى في قصائده الذاتية
 الرائعة وتجربته الفنية الفريدة
 عبد الرحمن غنيم
 القاهره

وسيفه القضاء والقدر
 ياتي الينا فجأة بلا اوان
 ويختفي في اللامكان
 لما تفنيت به ، لما تحرك اللسان
 لانني وهبت شعري للبشر .
 فهو لا ينظر للبطل نظرة تقديس ، لانه يحب في البطل انسانيته .
 فعبد الناصر بطل لانه يشارك الناس افراسهم واحزانهم :
 اني اغني للذي رأيت ،
 يوم الاماني مثله يوم الخطر
 رأيتك الانسان اصفى ما يكون
 اكثرنا حزنا ، اشدنا تفاؤلا ، ابرنا بنا
 الصق ما يكون بالارض ، وابواب البيوت ، وانتجر
 احن من صافي الندى على الثمر
 وكان بادي الوني .. وما يلين
 ثم انتصر
 وكيف لا ؟
 حصانه احلامنا
 كر وفر في السنين
 وسيفه احزاننا
 يا هول غضبة الحزين !

نعم . يا هول غضبة الحزين ! وهل كانت الثورة - لولا انها قامت
 لتبدد الاحزان التي تراكمت - لتكون بهذه القوة وبهذا التجاوب مع
 الجماهير .
 هذا كله يؤكد ان الشاعر ينطلق من قضية واضحة الابعاد. وتتضح
 ابعاد قصيته انصاحا تاما في قصيدته في « رثاء المالكي » :